مظاهر النوستالجيا في شعر إمرئ القيس

أ.م.د. عزت ملا إبراهيمي الباحثة. صديقه جعفري نژاد
جامعة طهران (الكاتبة المسئولة) جامعة كاشان/ إيران

The Nostalgia in Amryalqys poet

Ass.Prof.Dr. Izzat Mullah Ibrahimi Researcher. His friend Jafari Nejad
Tehran University (author responsible) University of Kashan\ Iran
mebrahim@ut.ac.ir

Abstract

Nostalgia in the Arabic is equivalent of "Alhnyn to Al-Mady" and despite that recently entering into many different areas of science is not new by any means, also can be found in the Jaheli (ignorant) literature in abundance so that the Jaheli (ignorant) poet returns to the past and calls his earlier memories. And what that brings him to readout the memories and nostalgia craze is his roam and unhappy present. Sadness, fatigue, pain and suffering those human sustains, generally human, and especially poet gets the sense of nostalgia. So nostalgia is a grief that happens in the result of being away from home and fatherland and according to another definition it is a kind of a desire that is mingled with regret to the past. This phenomenon is emerged in the result of environmental, social, political and psychological factors of Jaheli (ignorant) society in the poem of Jaheli (ignorant) poet and especially in cry poem on Atlal and Deman. One of the most famous poets of the Jaheli (ignorant) who takes delight for the past in his poems is Amryalqys, the leader of Arab poetry. Who was moaning due to lost the kingdom, home and being away from his mistress. Suggests that many factors led to that he comes back to his happiness past until he found that period remedy to his chagrin. One of the factors that returns him to nice dream and unrepeatable days of the past is his too much emotion. This study tries to show the reality of nostalgia in the poems of Amryalqys using a descriptive- Analytical method and study the reasons and types of that.

Key words: Amryalqys ،Nostalgia، thirst to past ،roving.

الملخّص

إنّ النوستالجيا الذي يعادل الحنين إلى الماضي في اللغة العربية رغم حداثته في مختلف المجالات للعلوم ليس بحديث، بل كان موجوداً في الأدب القديم بوفرة حيث يعود الشاعر الجاهلي إلى الماضي ويستدعي الذكريات السالفة والأمر الذي يدفعه إلى استدعاء الذكريات والحنين إلى الماضي هي الغربة وحاضره السيئ. التضجّر والملل والآلام والمكابد التي يتحمّلها الإنسان يدفع النّاس عامة والشعراء خاصّة إلى النوستالجيا. على هذا الأساس فإنه نوع من أنواع الحزن يتسبب فيه الإبتعاد عن الوطن أو البيت. وفى تعريف آخر هو اشتياق مصحوب بالأسف على زمن مضي وأحوال تغيرت. وقد تجلّت هذه الظاهرة في شعر الشعراء الجاهلي خاصة عند الوقوف على الأطلال وذلك في ظلال الأسباب البيئية، والاجتماعية، والسياسية، والآلام النفسية في المجتمع الجاهلي. ومن أبرز هولاء الشعراء الذين يتجلى الشعور بالشوق والحنين في أشعارهم هو امرؤ القيس، زعيم الشعر العربي، حيث قد حنّ إلى الوطن والأهل وملكه البائد وحبيباته. إنّ الشاعر لأسباب عديدة لجأ إلى ماضيه المشحون بالأفراح والراحة عزاء لهمومه التي أحاطت به من كل حدب وصوب ومن أهمّ تلك العوامل والأسباب عاطفته الفياضة التي تجرّه إلى الأيّام الحالمة الجميلة التي لم تتكرّر أبداً. وهذا المقال تسعى في البحث عن ظاهرة النوستالجيا في شعر امرئ القيس، وأسبابها، وأنواعها.

الكلمات المفتاحية: النوستالجيا، امرؤ القيس، الحنين إلى الماضي، التحسر، الغربة.

المقدمة

الشوق والحنين إلى الماضي هو واحد من سلوكيات غير واعية يطرأ على الشاعر أو الكاتب ويظهر هذه الظاهرة تحت تأثير العوامل الفردية والاجتماعية كفقد الأسرة، والحبس، والنفي، والتحسر على الماضي والهجرة وخطور الذكريات المتعلقة بالطفولة والشباب على البال. فيلجأ الشاعر إلى ماضيه المشحون بالفرحة هرباً من الترحة. هذه العودة إلى الماضي واستدعاء الذكريات السالفة تسمّى الحنين إلى الماضي في الأدب العربي أو النوستالجيا (nostalgia) في الأدب الغربي. لنوستالجيا جذور في اللغه اليونانية إذ إنّه مأخوذ من (nostas) بمعنى الرجوع و(algos) بمعنى الألم. والنوستالجيا في اللغة بمعنى الاحساس بالألم والتحسّر على ما مضى وما فات وجاء معادل النوستالجيا في المعجمات كالآتى: النوستالجيا: الحنين والشوق المفرط للرجوع إلى الماضي، وحنين الغربة، والتحسّر على الماضي والحنين للأهل والوطن وأيام الطفولة والصبا. وفي أبسط تعريفها تدلّ على الرجوع إلى الماضي وحب شديد له واستدعاء شخصياته وأحداثه وأمكنته مع البسط والتفصيل في الذكريات التي تتعلق به (مير أحمدي، ٢٠١٢، 152).

ومن وجهة نظر الباثولوجيا النفسية يطلق على حلم مأخوذ من الماضي الباهر، ذلك الذي لم يمت لها بزمن الحال من صلة ولا يمكن إستعادته وإعادة بنائه. على ذلك فإن مفهوم الحنين إلى الماضي والنوستالجيا يدلّ في مصطلح علم النفس على الحزن الذي يتولد من الميل الشديد إلى لقاء الوطن أم من التحسّر على الماضي والميل للرجوع إلى الديار والشعور بالغربة. وبطبيعة الحال يوّد الإنسان لو يسترجع الماضي السعيد ويضمحل الحاضر الحزين.

يتمثّل استرجاع الماضي عند بعض شعراء العرب الجاهليين والسبب في ذلك: المكابد التي يتحملوها إثر موت الأعزاء والأقرباء الضغوط النفسية الناشئة عن الغربة والبعد عن الوطن ورحيل الأهل والأحبّاء، والتحسر على الماضي والشكوى من الدهر وتذكر أيام الطفولة والصبا والحزن على الشيخوخة والتفكر في الموت. إضافة إلى ذلك أنّ «للماضى نكهة خاصة عند الإنسان لاسيّما ذلك الذي أثقلت أحزان الحاضر كاهله وأخذ الاغتراب بِخناقه فالماضي على وفق هذا التصوّر مرفأ يرتاده الشاعر فراراً من الألم والتماساً للراحة وإن كانت في الحلم والخيال» (راضي جعفر، 1999، 52). وبهذا المنهج يلوذون من حاضرهم إلى ماضيهم ويتذوقون حلاوة الذكريات السابقة.

ونحن في هذه الدراسة نسعى أن نلقى الضوء على استعمال النوستالجيا في شعر امرئ القيس وكيفية استخدامه محاولين أن نذكر مظاهر النوستالجيا والإجابة عن هذه الأسئلة: ما هو أسباب النوستالجيا؟ ولماذا يسترجع الشاعرُ الماضي؟

نبذة عن حياة امرئ القيس وشعره

هو حندج بن حُجر وامرؤ القيس لقبه. وُلد في نجدَ وكان حجر، أبوه، ملكاً على بنى أسد وغطفانَ فنشأ على ما تنشأ عليه أبناء الملوك. تعلّم الشعر من خاله المهلهل ولمّا كان امرؤ القيس ذكىّ الطبع، وقوىّ الفهم، ومتوقّدَ الذهن، وطلقَ اللسان، أجاد قولَ الشعر وبرز فيه وهو في عنفوان شبابه. فكان يعترض فَتَيات بنى أسد ويغازلهنّ يشبّب بهنّ فبلغ أمره إلى أبيه فنهاه عن ذلك لأنّه كان ذلك مما لايرضى به ملوك العرب في ذلك الزمن، لكن امرء القيس لم يطع أباه إنه كان محبّاً للّهو واللعب، مولعاً بمُغازلة النّساء فكان ذلك ممّا ينزع به إلى قرض الشعر فكان يقول الشعر واصفاً البنات، ومتغزّلاً وناسباً. فبلغ ذلك أباه فطرده فذهب شريداً، وفريداً (عبد الشافي، 2004، 3-5).

بما أنّه طرده أبوه فاختلف عند طائفة من الصعاليك والذؤبان والشذّاذ مِن أحياء طيئ وكلبَ وبكرَو ينتقل بهم في منازل العرب ويعاقرهم الخمر ويلاعبهم النّرد فيذبح لهم ويؤاكلهم وكان في هذه الحالة غيرَ عابئ من حوله إلا بالمَرَح والفرَح حينئذ جاء نعىُ أبيه قتله بنوأسد. فقام ثائراً في طلب بنى أسد يساعده في ذلك بكرُ وتغلبُ وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه فرحلوا فتبعهم هو وأنصاره حتى لحقهم وقاتلهم إلى أن كثُرت الجرحى والقتلى فيهم وحال بينه وبين بنى أسدَ الليلُ فهربت بنوأسد فلمّا أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالو له قد أصبتَ ثأرك وانصرفوا عنه. مضى الملك الضلّيل لوجهه حتى لحق حمير فأبوا أن ينصروه فتوجّه إلى قيصر ملك

الرّوم مستنجداً به على ردّ مُلك أبيه والانتقام من بنى أسد. وفي طريق عودته إلى وطنه أصيب بمرض كالجدرى ومات في بلدة أنقرة من بلاد الروم (الزوزنى، 2002، 32).

فيبدأ معلّقة امرئ القيس بالبكاء على الأطلال «ويتمثّل هذه القصيدة تفرّد ذات الشاعر وانفصاله عن القبيلة وشعوره بالوحدة وتمثّل تجربة الأطلال فيها محنة الشاعر ولقد حاول الشاعر في تخطّى هذه المحنة واستعادة حبه وتمثّلت فاطمة في حياة الشاعر» (الخشروم، 1982: 319)، فلذك يلجأ الشاعر بالبكاء مستحضراً الأيام الماضية ببهجتها. بما أنّ امرء القيس تحمّل مشاكل نفسية كثيرة إثر موت أبيه وإضاعة مملكته والفشل في إعادة ملكه وبما أنّه كان شاعراً متعهراً ومن ثمّ له علاقات عديدة مع النّساء وبما أنّه بَعُد عن وطنه فيمكن اعتبار مظاهر النوستالجيا في شعره كالآتى:

1- البعد عن الوطن:

الشوق إلى الوطن يحتلّ مكانه كبيرة في شعر الشعراء وقلّما يخلو منه شعر شاعر وخاصّة في العصر الجاهلي. الحنين إلى الأوطان عزيزة في النفوس سواء أكان عند الإنسان أم الحيوان يتجلّى ذلك في حنين الإبل إلى أوطانه وفي حنين الطائر إلى عشّه مهما أخذ وبعد به فكيف لا يحن الإنسان إلى أرضه ووطنه مهما عاش في حرمان وبؤس وعانى من الظلم، والفاقة، والحنين إلى الأوطان ظاهرة إنسانية عامة في نفوس البشر. الحنين إلى الوطن طبيعة في النفس البشرية ومرتبط بكرامة الإنسان وعزّته، وكانت ولاتزال الغربة عن الوطن هماً شديداً (الجبوري، 2008، **9**)، فالشعراء أنشدوا في الغربة والبعد عن الوطن والديار التي تمزق أوتار قلوبهم وتشعل الحرقة في فؤادهم. وامرؤ القيس أكثر في ذلك الأمر.

يختلف مفهوم الوطن في العصور القديمة عن مفهومه في العصور الحديثة، فقد كان مفهوم الوطن في القديم ضيقاً يشتمل الحىّ ومحلّ الاقامة لأنّ طبيعة شبه جزيرة العرب طبيعة جافة وكانت القبائل يرحلون إلى حيث يجدون الماء والكلأ ويغادرون مكاناً قاصداً إلى مكان آخر والمكان الجديد كان بمثابة الوطن الجديد. وعلى هذا الأساس كان الوطن عند الجاهلي الأهل والديار وكل منزل ينزله فيحنّ إليه ولمّا استقرّت القبائل في القرى والمدن صار مفهوم الوطن واضحاً، هو الأرض والبلد بحدوده وأهله صار الشاعر يردّد أسماء الديار يحنّ إلى مراعيها (حوّر، 1989، 10). عندما نقرأ شعر امرء القيس نجد حنينه إلى الوطن وأن مفهوم الوطن في شعره هو الذي ذكرناه. وبما أنّه في آخر حياته توجه إلى قيصر الروم مستنجداً به على ردّ ملك أبيه والثأر من بني أسد فيمكننا تقسيم النوستالجيا إلى الوطن في شعره إلى قسمين:

أ- بُعده عن الوطن: ونقصد به المفهوم الذي ذكرناه عن الوطن في المجتمع الجاهلي وذلك يتجلّى في البكاء على الأطلال. وهو «من الأشكال الفنية الجاهلية التي يمكن للمقاربة أن تقف من خلالها على إحباطات المجتمع الجاهلي ومكبوتاته، باعتبارها رمزاً قبل كلّ شيء نتعرف من خلاله إلى الذات الجاهلية في ردّ فعلها على الإحباطات ومحاولة تجاوزها» (بلوحى، 2004، 89). هذه الظاهرة التي كانت مشتركة عند الشعراء الجاهليين، فلا أحد ينكر أنّها ترتبط بحقائق نفسيّة ولا يمكن فهم هذه الظاهرة إلا من واقع العرب القائم على التنقّل والإرتحال وما يخلفه عدم الاستقرار من حزن وألم في النفوس. فالبكاء على الطلل حزن يرمز لتعلّق الشاعر بالماضي وحرصه على بقاء الذّكريات المتعلّقة بالماضي في نفسه بكلّ ما تحمله من أحزان وأفراحٍ. فالماضي على هذه الصورة لا يعود فناءً أو عدماً لأنّ الأثر باقٍ والشاعر ينفخ فيه من روحه. وإذا كان الزمن قد مضى فالأطلال رموز دلالة والبكاء عليها إنقاذ للذكريات من عالم النسيان والمغيب واستحضار لها إلى الدنيا التذكر والمشاهدة. والدّار التي قضى المحبوب قسماً من حياته في جنبها من أبرز بواعث النوستالجيا وإثارة الحنين والذكريات لدى الشاعر الجاهلي. والشاعر امرئ القيس يقف على الأطلال ويذكر ذكرياته التي مضت. وجدير بالذكر أنّ امرء القيس هو أوّل من وقف على الأطلال وبكى عليها وهو في طليعة معلقته يقول (الديوان، 2004، 110):

قفا نبك مِن ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللّوى بينَ الدخولِ فَحَومَلِ

فَتوضحَ فَالمقراة لم يَعفُ رَسمُها لِما نَسجَتها مِن جَنوبٍ وشَمألِ

رؤية منازل الأحبة خالية يجعل الشاعر أن يشعر بالحنين والشوق وبما أنّ الطلل ترتبط بأجمل الذّكريات في نفس الشاعر فوقوفه عليها كان يمثّل له حياته السابقة التي عاشها بكلّ ما فيها كما كان يمثّل له في الوقت ذاته رمزاً لفنائه، ولذلك كان بكاءه على الوطن بكاء على ماضيه من خلال حاضره وتعبيراً عن حبه الجامح للحياة التي يهدّدها الدّهر بالأفول والفناء. ومن ثمّ كان في تناوله للطلل «يحاول أن يتّحد بكل شيء له علاقته بالماضي رغبة منه في الانفصال عن الواقع» (الجيلانى، 1987، 210). لأنّ العرب بطبيعته دائب التّنقل والرحيل سعياً وراء الماء والكلأ يدخل إلى مكانٍ تاركاً مكاناً آخر. فيجسّد الشاعر هذا المفهوم في مطلع قصائده فنراه يحنّ إلى ديار الأحبة الراحلين ثمّ يعبّر عن ما يجيش في نفسه من الإحساس بالفرقة والبعاد كما يجسّد الوحشة التي تكتنف نفسه ذاكراً الأمل الضائع والماضي الذي إبتلعه العدم. ولذا يقول (الديوان، 2004، 109):

قِفا فَسألا الأطلالَ عَن أمِّ مالك وَهَل تخبرُ الأطلالُ غَيرَ التَهالك

يقف الشّاعر على الطلل المحبوبة الراحلة ويحنّ إلى هذه الديار مما أشعر بالحنين إلى محبوبته، أمّ مالك ولا يرى شيئاً غير التهالك. فأجمع الشاعر بين عنصرين أحدهما يذكر بالفناء، وهو الأطلال، والآخر يذكر بالحياة وهو الحب، وهكذا يلجأ من حاضره السيئ إلى سالفه المنشود. ويقول أيضاً (نفس المصدر، 122):

ألا عِم صَباحاً أيّهَا الطللُ البالي وهَل يعمنُ مَن كانَ في العَصر الخالي

وَهَل يعمنُ إلا سَعيدٌ مخلّدٌ قَليلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بِأوجال

في الواقع يمكن القول بأنّ شعر البكاء على الأطلال ووصف الدّيار يشبه بنوع من السيرة الذاتية لأنّ الغور والتامّل في المضامين الخاصة لهذا الشعر يدلّنا على أنّ الشاعر بعد وصف الآثار الباقية عن ديار الحبيب يلوذ ببيان ذكريات التي جرت بينه وبين حبيبته في هذه المنازل التي درست آثارها. كما يرى الشاعر آثار الدّيار التي أمحت لمرّ السنين والأحوال حتى أصبحت آثارها كالخطوط في الصحف ويذكر الحيّ الجميع فهيجت أشجانه حتى يسيل دموعه ويتوالى إنصبابه في قوله (نفس المصدر، 163):

قِفا نَبك مِن ذِكرى حَبيبٍ وَعرفان وَرَسم عَفَت آياتُه مُنذُ أزمان

أتَت حججٌ بَعدي عَليها فَأصبَحَت كخَطِّ زَبور في مَصاحِفِ رُهبان

ذَكرتَ بها الحَيَّ الجَميعَ فَهيجَت عَقابيل سقم مِن ضَمير وَأشجان

فَسَحَّت دُموعي في الرِّداءِ كأنَّها كلىً مِن شُعيبٍ ذاتِ سَحّ وَتهتان

والشاعر في معلقته يصف حالته الحزينة ومكتئبة حيث يقول (نفس المصدر، 111):

وإنَّ شِفائي عَبرَةٌ إن سَفحتُها وَهَل عِندَ رَسمٍ دارسٍ مِن معوَّل

في الواقع أنّه يهرب من الواقع لعدم قدرته على التنسيق مع القبيله فيأتى إلى الطلل، ذلك أنّ تجربة الطلل متصلة بتجربة حبّه ويحاول في استعادة حبه ولكنه يظلّ عاجزاً ويلوذ بالبكاء يضطره القهر إلى التصريح بأن شفاءه عبرة تسكبها العين. يتضح مما مضى أنّ الحنين هو الأساس الذي يقوم عليه شعر الوقوف على الأطلال في الحقيقة لأنه متصل دائماً بالغزل.

ب- البُعد عن الوطن في الروم: قبل أن نورد البحث حول بُعد إمرئ القيس عن وطنه العربي نشرح مفهوم الغربة لأنّ الغربة من أكبر بواعث النوستالجيا عند الشعراء ويرى البعض أنّ الغربة والاغتراب خارج الوطن أشدّ وأقسى أنواع الغربة. فالمغترب يقاسي من العزلة والتمزّق والوحشة وتزداد لوعة وألماً عند الشعراء المرهفين (الجبوري، 2008 :40). ويبدو أنّ الغربة عاشت مع الإنسان منذ بداية حياته «فهو منذ بدأ يضرب في الأرض قد حمل بين جوانحه ضروباً من الإحساس بالغربة حتى تلونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس» (فهمى، 1970، 7). وللغربة أشكال مختلفة كالآتي:

1. غربة القهر: ليس للانسان سلطة فيها وإنّما تساعد مجموعة من العوامل على خلقها وقد تجلّت في الغربة عن الوطن وعن الأهل وفي الغربة عن المجتمع، فليس هذه الغربة بإرادة الإنسان، فهو غريب غربة القهر.

2. غربة الذات: قصد إليها الإنسان الجاهلي قصداً وتجلّت في حنينه إلى الماضي وتغيّر الدهر عليه وخروجه على القبيلة وعلى القيم الدينية والروحية التي كان يؤمن بها المجتمع الجاهلي.

3. الغربة المكانية: تتمثّل في البعد عن الأهل والوطن اضطراراً أو اختياراً فهذا يعدّ اغتراباً ماديّاً.

4. الغربة المعنويّة: إذا كانت الاغتراب يرتبط بمواضع النفسيّة والفكرية، والاغتراب النفسي يتصل بالروح المعذّبة مثلاً التفكر في الموت و... (الخشروم، 1982، 14).

فالغربة تجربة مرّة يريد الإنسان أن يخلص منه ويعتقد البعض أن الحنين وليد الغربة والحنين يظل يؤرّق صاحبه ويعذبه ويُبكيه أحياناً ويُدمى مشاعره وأحاسيسه ذلك أنّ الإنسان المبعد قسراً أو طوع إرادته لا يمكن أن تقلع جذوره الراسخة في أعماق تربته الأولى. «وهذا الرسوخ هو الذي يولد الحنين ومن ثمّ يولد الشعور بالألم واللوعة والغربة، وسبب الشعور بالغربة هو الابتعاد عن الأمكنه والأزمنه والأشياء المألوفة والقريبة إلى المشاعر والأحاسيس الإنسانية (جابر، 2013، 141). والشاعر الجاهلي امرؤ القيس من أكثر شعراء الجاهلية إحساساً بالغربة حيث فقد ملك أبيه فهام على وجهه لعلّه يجده من يعينه على استرداد ملكه إلى أن وصل إلى بلاد الروم فأحسّ بدنو أجله لما أصابه من أوجاع. فنظم هذه الأبيات التي تفيض لوعة ومرارة وإحساساً بالوحشة.

فإذا ما بعُد الشاعر عن دياره يصحب ذكرها الشوق والحنين إليها وإلى أيام الحب والصفاء فسرعان ما يملأ الحنين والشوق إلى الديار وساكنيها ويشعر بالغربة. فهذا امرؤ القيس حين توجه إلى بلاد الروم واغترب كان يحنّ إلى الوطن وكلما مدينة أو بلد جاوزها يتقطّع كبده حسرة على فراقها. فيقول وهو في طريقه إلى بلاد الروم ويبدو من شعره أنه سلك طريق الشام، وأنه مرَّ على «حَوْرَان» و«بَعْلَبَك» و«حِمْص» و«حَماة» و«شَيْزَر» ذاكراً وطنه (الديوان، 2004، 65):

لَقَـــدْ أَنْكَرَتْنِـــي بَعْلَبَـــكُّ وأَهلُـــه ... وَلا بـنُ جُـرَيْجٍ فـي قُـرَى حِمْـصَ أَنكَـرَا

نَشِـيمُ بُـروقَ المُـزْنِ أَيـنَ مَصـابُه ... ولا شَـيءَ يَشْـفِي مِنْـكِ يـا ابنَـةَ عَفْـزَرَا

مـنالقاصِـرَاتِالطَّـرْفِ لـو دَبَّ مخـولٌ ... مـن الـذَّرِّ فـوقَ الإتْـبِ منهـا الأَثَّـرَا

لـــه الوَيْـــلُ إنْ أمْســـى ولا أُمُّ هاشِـــمٍ ... قريـــبٌ ولا البَسْباسَـــةُ ابنـــه يَشْـــكُرا

ويواصل الشاعر سيره في الشام متنقّلاً في قراها في مواضع كان فيها غريب اليد واللسان، إلى أن صار إلى بَعْلَبَكّ فأنكره أهلها، وكان أهل حمص أشدَّ إنكاراً له، وذلك لعدم معرفتهم به، وحينئذٍ أرسل خياله يرود آفاق الوطن فتذكّر الأحبة، فأخذ يراقب هطول المطر ليعلم أين وقعه ومصبّه، طمعاً منه أن يكون في ديار مَنْ يُحِبُّ، فيشتفي بذلك، ولكن لا شيء يشفيه من الشوق إلى ابنة عفزر والحنين إليها. هي من المتحبّبات إلى أزواجهن اللائي لا تطمح أعينُهن إلى غيرهم تعفّفاً وحسن صحبة، ناعمة رقيقة لو مرّت نملة صغيرة فوق ثوبها لأثّرت في جلدها. وليست ابنة عفزر المرأة الوحيدة، من بين النساء اللائي عرفهن، التي تذكَّرها والتي كانت تشدّه إلى وطنه، وإنما كان لصاحبتيه، أمّ هاشم والبسباسة ابنة يشكر ماضٍ معه وذكرى، فهو يلوم نفسه إن مَضَتْ به الرحلة وأمسى بعيداً عنهما، نائياً عن ديارهما، لما يلقى من الوجد بهما والاشتياق إليهما. وبما أنّه يضطرّ إلى النزول بقومٍ لا يمت إليهم بصلة النسب، فيكون في هذه الحالة غريباً، ولكن هذا ليس بإرادته فهو غريب غربةَ القهر والحياة والمجتمع فيلجا إلى الماضي ويحنّ إليه متذكراً الايّام الماضية فيعتوره غربة أخرى وهي غربة الذات لانها يتمّ بإرادته كما أننا نشاهد غربة أخرى في هذه الابيات وهي الغربة المكانية أو المادية لأنّه بعيد عن أهله ووطنه وكلّها تسبب النوستالجيا.

ويذكر امرؤ القيس الأماكن والديار التي مرَّ بها، ووصف الطرق التي سلكها. وهي تصوّر شخصية الشاعر أصدق تصوير في النزوع إلى الماضي والتطلّع إلى المستقبل. وعندما يعود من بلاد الروم يرى قبر إمرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سطح جبل يقال له "عسيب"، فيسأل عنها فيخبَر بقصّتها. فقال يذكر غربته (نفس المصدر، 49):

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب وما هو آتٍ في الزمان قريب
وليس غريباًمن تناءت دياره ولكن من وارى التراب غريب

يقول الشاعر يا جارتي إني سألحق بك قريباً وكلانا غريبان هنا والغريب للغريب نسيب أى ذو قرابة. وفي كلام حكمي يستسلم الدهر ويقول ما مضى لا يعودُ بعدُ، ثم يقول بصورة غير مباشرة إنّ الغربة بعد الموت أشدّ وأقسى من الغربة عن الأهل والديار. وفي أبيات أخرى نرى مدى تأثّر الشاعر بالغربة حيث يقول (نفس المصدر، 64):

بَكَى صَاحِبي لَمَّارَأَى الدَّرْبَ دُونَه وأَيْقَنَ أنّا لاحِقَانِ بقيْصَرَا
فقلتُ له لا تَبْكِ عَيْنكَ إنّما نُحاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنعْذَرَا
وإنِّي زَعِيمٌ إنْ رَجَعْتُ مُمَلَّكا بسَيْرٍ تَرى منه الفُرانِقَ أزْوَرَا

يرافق الشاعر في هذه الرحلة عمرو بن قميئة الذي رافقه فى ذهابه إلى بلاد الروم، وكان عمرو شيخاً كبيراً، وقد أحسَّ خلال هذه الرحلة الشاقة بقسوة الغربة، وعذاب الوحدة، ووحشة الدار، فعندما جاوز وصاحبه بلاد العرب إلى بلاد الروم، مخلِّفَيْن وراءهما أرضاً عزيزة وذكريات جميلة، وأيقن عمرو أنه صائر إلى قيصر لا محالة، حنَّ إلى بلاده فبكى، فيسلّيه امرؤ القيس عن البكاء، ويخفّف من آلامه وأحزانه بأن يصبر على ما يجد حتى يدركا ما يطلبان من المُلْك، بالوصول إلى قيصر والرجوع إلى قتال بني أسد، إلاَّ أن يحول الموت دون ذلك، فيكون لهما العذر إذ لم يقصِّرا في الطلب. ويطيب خاطره ويهديء من روعه فيذكر له لئن استجاب له قيصر، ورجع من عنده بجيش عظيم يستعيد به ملكه، فإنه كفيل بأن يسير سيراً شديداً، يطوي الأرض طيّاً، فيبلغا ديارهما في زمن وجيز وقال يذكر علمته بأنقره (نفس المصدر، 89):

لمن طلل دائر آيُه تقادم في سالف الأحرُس
وتنكره العين من حادثٍ ويعرفه شغفُ الأنفس
فإمّا تريني وبى عرّة كاتّي نكيب من النقرس
وصيّرني القرحُ في جبّة تخال لبيساً ولا تُلبَس

أصيب الشاعر بالجدري في طريق عودته إلى بلده في أنقره، وذهابه إلى بلاد الروم كان غربة القهر لأنه ما كان فيه السلطه وأجبره القهر بالذهاب إلى ديار الغربة يسترد ملكه استنجاداً لقيصر وعندما أُبتُلىَ بالمرض أحسّ بغربة أخرى وهي غربة الذات لأنّ واقعه الأليم سبب في اذكاره وحنينه إلى الماضي فامتزج الغربة الثانية بالأولى. فاشتاق إلى ماضيه المتلألأ والمعافي هرباً من حاضره النكيس. فنراه يحنّ إلى الأطلال ويقول إذا أنكرت عيني الطلالَ أي لا يراها فقلبي مشغوف بها ويذكرها. فأحياناً يشعر الإنسان بالغربة وهو داخل الوطن كما شاهدنا في الوقوف على الأطلال وإضافة إلى ذلك نشاهد في أبياتٍ غربة امرئ القيس ليس لسبب رحيل الأهل والأحبة بل عند أقرباءه العرب وهم حمير ويقول في مقامه من حمير (نفس المصدر، 168):

وما كنت أخشى أن أبيتَ بحميَر غريباً ولا أغدو إلى باب همدانَ
ولا أتثنّى في ظِفارٍ وأجتني جنَى النّحل غرثاناً ولا غير غرثان
ألا ليت لي بالنّحل أحياء عامل وبالخشلات البقع أرشاء غزلان

فيدعوه هذه الغربة والغربة التي وقعت خارج الوطن أن ينشد كثيراً من أشعاره في مضمون النوستالجيا والاشتياق إلى الماضي.

2. مجده الضائع ومُلكه البائد:

عدم الرضا من الواقع الموجود واللجوء إلى الماضي من أهمّ مظاهر النوستالجيا. فتذكر الماضي الباهر يثير في نفس امرئ القيس موجاً من التحمّس ولكي يتناسى واقعه الأليم يلوذ بتاريخه المتلألأ في الزمن الماضي.

نعلم أنّ امرء القيس كان من أبناء الملوك وكان حُجر – ابوه – ملكاً على بنى أسد وزعموا أنّ ملكه عليهم ظلّ ستين سنة كما أنّ أعمامه كانوا من الملوك. فنشأ الشاعر على ما ينشأ عليه أبناء الملوك فيؤذيه واقعه الأليم الذي طرأ عليه بعد موت أبيه ونراه يتهكم المجاورة مع أحياء أخرى غير حيّه وذاكراً عمّه الحارث الذي يشمل ملكه بلدان واسعة، ويقول (نفس المصدر، 169):

أبعد الحارث الملك ابن عمرو له ملك العراق إلى عمان

مجاورة بني شَمجَى بنِ جرم هواناً ما اتيح من الهوان

وفي أبيات أخرى يذكر أسلافه من بنى حجر بن عمرو الذين قتلهم تغلب ويتحسّر عليهم، حيث يقول (نفس المصدر، 168):

ألا يا عين بَكى لي شَنَبِنا وبكى لي ملوكَ الذّاهبينا

ملوكاً من بني حُجر بن عمرو يساقون العشيّة يقتلونا

فلو في يوم معركةٍ أُصيبوا ولكنّ في ديار بني مَرينا

فلم تُغسَل جماجِمُهُم بِسدر ولكنّ بالدماء مرمّلينا

فالشاعر يتحسّر على أسلافه الملوك ويتمنّى لو كانوا يقتلون في المعركة ولا في ديار بنى مرين وكان شأنهم الغسل بالماء وليس من شأنهم أن يلخطون بالدماء. وفي أبيات من قصيدة «إنّا لاحقان بقيصر» يفتخر بماضيه ويبيّنه في تحسّره عليه حيث يقول (نفس المصدر، 66):

وكنّا أُناساً قبلَ غزوة قرمَل ورِثنا الغنى والمجدَ أكبرَ أكبرا

وما جَبُنَتْ خَيْلي ولكنْ تذكَّرَتْ مَرابِطَها من بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرَا

ألا رُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ قد شَهِدْتُهُ بِتَأْذِفَ ذاتِ التَّلِّ مِنْ فَوْقِ طَرْطَرا

ولا مِثْلَ يَوْم في قذارانَ ظلْتُهُ كأنّي وأَصْحابي على قَرْنِ أَعْفَرا

والشاعر يفتخر بقومه، هم كانوا قبل غزوة قرمل يتوارثون الغنى والمجد كبيراً عن كبير، ولئن تراخى أصحابه عن اللقاء في أحد الأيام، فليس ذلك لجبن أدركهم، أو ضعف استولى عليهم، ولكنهم ذكروا المواطن والأهل، وحنّت نفوسهم إليها، فرجعوا عن العدوّ حرصاً على اللحاق بالأهل، ولتشفى النفوس بلقائهم. وما أكثر الأيام التي شهدها في "تأذِف" و"طرطر" فكانت له فيها الظفر والغلبة، ولكن ليس يوم، في حياته، مثل يوم "قذاران" حيث كان ظفره في هذا اليوم أشدَّ ظفراً، وغلبته أقوى غلبة، وإن كان قد أصاب حاجته وأدرك طَلِبتَه، فقد كان وأصحابه فيه على حذر وقلّة طمأنينة كأنهم على قرن ظَبْي. ويزهو بعادة كانت موجودة عندهم أنهم كانوا يشربون حتى يُذْهبَ السكرُ عقولهم، ويحيّر أبصارهم فيحسبوا الخيل حولهم غنماً، والسُّود حمراً، وفي بيتٍ يفتخر بماضيه الذي كانوا السادّة والبقية كانوا في خدمتهم، حيث يقول (نفس المصدر، 48):

ما ينكر الناس مِنّا حين نملِكهم كانوا عبيدا وكنّا نحن أرباباً

وفي أبيات أخرى قالها الشاعر في بلاد الروم بعد أن شعر بالضعف، يحنّ إلى أيام شبابه الباهر ويتحسّر عليه بعد أن اعتراه الضعف والشيخوخة (نفس المصدر، 86):

فيا رُبَّ مكروبٍ كررتُ وراء وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفّسا

ويا رُبَّ يومٍ قد أروحُ مرجِّلاً حبيباً إلى بيض الكواعبِ أملسا

يرعنَ إلى صوتي إذا ما سمعنَه كما ترعَوى عيطٌ إلى صوتِ أعيَسا

أرَاهُنَّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قَلَّ مالُهُ ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فيه وقَوَّسَا

ومع إحساس الشاعر بالعجز والضعف يفرّج عن نفسه ويخفّف من مصابه باستعادة ذكرياته أيام الشباب والقوة، فيتبادر إلى ذهنه الأعمال التي قام بها وهو سليم معافى، فما أكثر ما أنجد مكروباً، عطف من ورائه وطاعن عنه أصحاب الخيل – وهو هارب منهزم– حتى أفلت منهم، وما أكثر الأيام التي كان يُعْنى فيها بنفسه مرجِّلاً شعره، فيبدو شاباً ناعماً حبيباً إلى الصبايا، يشدّهن صوته، فيرجعن إليه حبّاً وكلفاً به، كما ترجع النوق الفتية إلى الفحل. ولكنه اليوم غيره بالأمس فقد قلّ ماله وشاب شعره وتقوَّس ظهره، وهذه أمارات الكِبَر وعلامات الهرم تنفّر النساء منه، ومن أي إنسان. وفي الأبيات التي قالها بعد مرضه في بلاد الروم يفتخر بماضيه المشحون بالفتوّة حيث يقول (نفس المصدر، 163– 164):

فإمّا تَرَيْنـي فـي رِحالَـةِ جَـابرٍ ... علـى حَـرَجٍ كـالقرِّ تَخفِـقُ أكْفَـاني
فيـا رُبَّ مَكْـروبٍ كَـرَرْتُ وراءَه ... وعـانٍ فكَكْـتُ الغُـلَّ عنـه فَفـدّاني
وفِتْيـانِ صِـدْقٍ قَـد بَعَثْـتُ بسـحْرةٍ ... فقـاموا جميعـاً بـين عـاثٍ ونَشْـوَان
وخَـرْقٍ بَعيـدٍ قـد قَطَعْـتُ نِياطَـهُ ... علـىذاتِ لَـوْثٍسَـهْوَةِ المَشْـيِ مِـذْعَانِ

يصف الشاعر حاله مريضاً يحمل على سرير، ويحمله جابر بن حُنَيّ التغلبي في رحالته، قد ذوى جسمه، واتسعت عليه ثيابه، فهي تضطرب لاستقبالها الريح وتحريكها لها. وفي مثل هذه الحالة من الضعف والعجز يفسح لخياله مجالاً للعودة به إلى الماضي، يسترجع به ذكرياته، وأيام شبابه وفتوّته، فكم محصور رجع إليه وقد أحاط به العدو، وقاتل عنه واستنقذه، وأسير فداه بماله فحُلّ وثاقه وسرّح، ولو كان أسيره منَّ عليه وأطلقه، وأصدقاء له أيقظهم مبكرين، فقاموا وهم بين عاثٍ ونشوان، وأرض واسعة تتخرَّق فيها الرياح قطعها على ناقة قوية الخلق، لينة المشي، مِذْعان، وسهول أصابتها سحب قوية، شديدة الصوت، فأعطت نبتاً مختلف الألوان كألوان الفنا، هبطها على فرس ضخم، يعطيك ما عنده من الجري قبل أن تُكلِّفه ذلك وتسأله إياه. والغربة هنا غربة نفسية لانّها مرتبطة بروح الشاعر المعذّبة والحائرة.

وفي قصيدة أخرى يتوجع الشاعر من مرضه بأرض الروم ويتذكر ماضيه المشحون بالبطل ولكن السقم الذي اعتراه هنا سبب في استذكاره الماضي الذي يتمتع بالنعم والان بدّل النعم والسلم والراحة بالبؤس والعذاب، حيث يقول (نفس المصدر، 87):

ويُدلتُ قَرحاً دامياً بَعدَ صحة ... فيالكَ من نُعمى تحوّلنَ أبؤسا

ولا نحيد عن الصواب عندما نقول إنّ عاطفة الشوق إلى مجده الماضي والتبرّم بالحاضر المؤلم المخزي والتضجّر من المرض المهلك والتنفّر من الغربة والشعور باقتراب الموت هي العوامل التي أدّت بالشاعر إلى الحنين؛ الأمر الذي كان يبعده، ولو لبرهة قصيرة، إلى ما كان يأمله من الماضي المرضيّ عنده، وباعتباره إنساناً له تاريخ يخصّه، وهو يعيش مع ذكرياته ويحيا بتذكارها، ويسلِّي نفسه عن الهموم والأوجاع.

3. البعد عن الأهل:

الأمكنة التي كانت عامرة بأهلها يوماً والأحبة أنيسة بوجودهم تتخللها أسباب الحياة والأمل، ولكن الزمن الماضي كان مسرحاً لها، وعندما يراها الشاعر مقفرة خالية من الأهل والأحباب ومن كل أنيس، إذ درست أثارها وتغيرت علاماتها، تبعث على الحزن والألم والتشاؤم وهو الباعث على النوستالجيا. وأيضاً غربة القهر التي مرّ ذكرها ليس للانسان سلطة فيها وإنّما تُساعد مجموعة من العوامل على خلقها فهذا امرؤ القيس عندما نأى عن أهله في بلاد الغربة يتذكر بنتها "هند" ويقول (نفس المصدر، 57):

أأذكـرتَ نفسـكَ مـا لـن يَعـودا ... فَهـاجَ التَّـذكرَ قَلبـاً عميـدا
تَـذكرتُ هنـداً وَأترابَهـا ... فأصـبحتُ أزمعـتُ منهـا صُـدُودا
ونادمـتُ قَيصَـرَ فـي مُلكـهِ ... فـأوجَهَني وَركبـتُ البريـدا

فأمرض قلبه حب بنته "هند" وتذكرها ويقول هو بعيد عن أهله ولا جدوى للتذكر وما فات ليس بآتٍ لأنه في الروم وبعيد عن أهله فيهيجه شوق الأهل ويتوقّع منها الصد والهجران في بلاد الغربة عند قيصر. ويقول امرؤ القيس في توجهه إلى قيصر الروم في قصيدة "انّا لاحقان قيصرَ" مستنجداً به على ردّ ملكه إليه والانتقام من بني أسد (نفس المصدر، 62):

تَذَكرْتُأهْلي الصالحينَ وقدأَتتْ علىخَملي خُوصُالرِّكابِ وأَوْجَرا
فَلمّا بَدتْ حَوْرانُ والآلُ دونها نَظرتَ فلم تنظرْ بعينيكَ مَنظرا
تَقَطَّعَ أَسْبَابُ اللُّبانَةِ والهوى عَشيّةَ جاوزنَا حَماةَ وشيزرا
بسَيرٍ يضجُّ العَوْدُ منه يمنُّه أخو الجَهدِ لا يلوى على تعذُّرا
ولم يُنسيما قدْ لقيتُ ظعائناً وخمْلاً لها كالقرّ يوماً مُخدَّرا

وانتقل الشاعر بعد عدّة أبيات تذكر أهله الصالحين، لما هو عليه من سفر واغتراب، مسجّلاً أحزانه وآلامه النفسية التي اعتورت فؤاده، ورافقته في مسيره إلى أرض الروم منذ أن فارق أهله وديارهِ، فهو عندما صار إلى بعض مواضع الشام إلى "خملي" و"أوجر" وقد بَعُد عن أهله وعن ديار محبوبته، تذكّرهم واشتاق إليهم، ولما دنا من "حَوْران" فبدت له في الآل لم يرَ شيئاً يسرُّ به، إذ كان كلّ ما رآه جديداً عليه غريباً عنه، ولا يصله به نسب ولا تشدُّه إليه عاطفة، فكأن كل ما رآه غير مرئي لحقارته وقبحه في عينه، فلما جاوز "حماة" و"شَيزر" تقطعت به أسباب الحاجة إلى من أحب يأساً من اللقاء، وشغلاً بما لقيه من الشدة والعناء. ولطول المسافة وبعد الديار كانوا يسيرون متعجلين، فقد أخذت القافلة تغذّ السير، وتجهد نفسها بسرعة فوق طاقتها، حتى ضجّت الإبل المسنّة من سرعتهم، فكان من تخلّف منهم لشيء أصابه لم يتربَّص عليه حتى يدركهم. ورغم الأهوال التي ألمَّت به، وما لقي من عناء السفر، وبُعْد الشُّقّة لم ينس نساءً في هوادج مرتفعة، جلّلت حمولتهن بالخَمْل، خضراء اللون كأثل وادي الأعراض، فارقته عند انقضاء المرتبع والرجوع إلى المياه، مررن "ببيشة" وخلفن "الغمير" قاصدات "غضور". ويقول الشاعر في مكان آخر يذكر أهله (نفس المصدر، 130):

عَفتِ الديارُ فما بها أهلي وَلوَتْ شُموس بشاشةَ البَذْل

خلت الديار من أهله ويصف من يتغزل بها ويقول إنها شموس أي نفور وضنت عليه بالبشاشة التي هي علامة الرضا. فعدم الرضا من الحاضر لنفور حبيبته سبب في استرجاعه الماضي السعيد، الوقت الذي كان مع أهله. وقال يتوجّع من مرضه بأرض الروم يحنّ إلى أهله (نفس المصدر، 85- 86):

ألمّاعلى الرّبع القديم بعَسعَسا كأنّي أنادي أوْ أكلّمُ أخرسا
فَلوْ أنَّ أهلَ الدّار فيها كعَهدنا وَجدتُ مقيلاً عندهُمْ وَمُعرّسا

دعو فيها صاحبيه إلى النزول على الطلل مساعدة له حتى يسأله عن أهله، وقد ناداه وتحدّث إليه فلم يجبه، وكأنه ينادي أو يكلم أخرساً، خلت الديار من أهلها فلا أنيس بها يستقرّ عندهم، ويقيم فيهم، ولو أن أهل الدار فيها كما عهدهم زمن المرتبع لنزل فيهم ظهراً واستراح عندهم ليلاً أراد الشاعر فيها أن يبيّن أنه أصبح بعيداً عن دياره، غريباً عن أهله وقومه، في مواضع لا يعرفه أحد، ولا يعرفهم، ولا يجد فيهم من يواسيه، ويخفف من آلامه وأوجاعه والغربة هنا غربة القهر. ليس له سلطة فيها وإنّما تُساعد مجموعة من العوامل على خلقها وقد تجلت في الغربة عن الوطن وعن الأهل وفي الغربة عن المجتمع كما أسلفنا.

4. الحنين إلى حبيباته:

والأبيات امرئ القيس في معلقته مليئة بالذكريات التي تتعلّق بمغامراته مع النساء، وفي البداية يخاطب الشاعر حبيبته "فاطمة"، ثم ينتقل إلى ذكر مغامراته مع النساء «لكي يستثير أحاسيس صاحبته "فاطمة" وأن يزرع الغيرة في قلبها، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللّائي أبكينه وبرّح حبهن» (ضيف، 1976، 249). والشاعر عند وصف حبيباته يستعيد ماضيه المشحون بالمجون والتعهّر حيث يقول في معلّقته (الديوان، 111):

كَـــدَأْبكَ مِـــنْ أُمِّ الحُوَيْـــرِثِ قَـــبْلهَا وَجَارَتهـــــا أُمِّ الـــــرَّبابِ بِمَأْسَـــــلِ

إِذَا قَامتَــا تَضَــوَّعَ المسْــكُ منهُــمَا نسِــيْمَ الصَّــبا جــاءَتْ بِرَيَّــا القَــرَنْفُلِ

هذان البيتان يشيران إلى التغزّل بامرأتين؛ "أم الرباب" و"أم الحويرث" وهذا يعني أن الشاعر قبل تعرّفه على حبيبته، "فاطمة" كان له عدة عشيقات كما أنّه كان متعهراً فلا يهمّه الالتزام بعشيقة واحدة والشاعر عندما يرى تدلّل فاطمة يقول لها أمهلي أنا لي كذا وكذا من الحبيبات وعلى حد قول شوقي ضيف يريد الشاعر «استثارة الغيرة في قلب فاطمة» (ضيف، 1976، 249). والشاعر يصف العلاقة الموجودة في تذكره رائحة القرنفل منهما وهذا التذكر يدلّ على أن الشاعر كان له علاقة قريبة معهما كما أنه في البيت التالي يبكي بكاءاً شديداً عند تذكره للحبيبات حيث يسقط الدموع على محمله ويبلّ من كثرة الدموع والبكاء (الديوان، 112):

فَفاضَتْ دُموعُ العينِ منِّي صَبابةً على النَّحرِ حتَّى بَلَّ دَمعي محملي

وفي الأبيات الثلاثة التالية يذكر الشاعر ماضيه السعيد ذاك الذي حدث في "دارة جلجل" حيث عقر مطيّته للعذارى. هنا نجد الشاعر يفتخر بجوده ذاكراً الأيام الخالية على هذا الأساس يمكن القول بأن هدف الشاعر من استعادة الماضي هنا إثارة انتباه فاطمة، حيث ينحر مطيته لأجلها ويؤثّرها على نفسه (نفس الصفحة):

ألاَ رُبَّ يَوْمٍ لكَ مِنْهُنَّ صالحٍ وَلاَ سيَّما يَوْمٌ بِدارةِ جُلْجُلِ

ويَوْمَ عَقرْتُ لِلعَذارى مَطيَّتي فَيا عَجَباً مِنْ رَحلها المُتحملِ

فَظلَّ العَذارى يَرْتَمينَ بلحمِهَا وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمقسِ المُفتلِ

ويتابع الشاعر في القصيدة يذكر علاقته مع "عنيزة" وامرأتين آخريين، إحداهما حبلى والثانية جميلة، لا يقصدها أيّ شخص لأنّها محفوظة من قبل الحراس ولكنّه يدخل الشاعر خباءه ويتغزّل بها. فـ"عنيزة" «اسم عشيقته وهي ابنة عمه، وقيل هو لقب واسمها فاطمة» (مومني، 2005، 74). علي أي حال يمكن القول بأنّ هدف الشاعر من استعادته الأيام الماضية هنا، يريد أن يقول إنّه جريء ولا يمنعه أحد من إدراكه آماله، ويروم الكشف عن الأحداث لـ"عنيزة" ويخبرها بما جرى، حيث يقول (الديوان، 112، 113-114):

ويَوْمَ دَخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزةٍ فقالتْ: لَكَ الوَيلاَتُ إنَّك مُرجلي

فَمثلكِ حُبْلى قَدْ طَرَقتُ ومُرضعٍ فَألهيتُها عَنْ ذي تَمائمَ مُحْوَلِ

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤها تمتَّعْتُ من لهوٍ بها غَير مُعجَلِ

تَجاوزتُ أحْراساً إليها وَمعشراً عليَّ حراصاً لو يسرُّونَ مقتلي

وتجلت "أم الحويرث"، و"أم الرباب"، و"دارة جلجل"، و"عقر الناقة للعذارى"، و"خدر عنيزة"، و"بيضة الخدر"، كلها أسماء علقت بالماضي السعيد لامرئ القيس فكان حضورها في الحاضر المنتكس كعامل تعويض ممزوج ببكائية متميزة. وفي قصيدة له يذكر "ليلى" ويشبه دموعه السكبة من عينيه بأعالي الجبال ويشبه مجاري الدموع منهما بمياه متحلبة بجدولٍ. فـ"ليلى" كانت من صواحباته ويبكى الشاعر بكاءاً شديداً إثر تذكرها ويقول (نفس المصدر، 142):

عَيناك دَمعها سِجال كأنَّ شأنيهما أوشال

أو جَدولٌ في ظلالِ نَخلٍ للماء من تحتهِ مَجال

ويذكر الشاعر حبيبته في قصيدة أخرى ويقول (نفس المصدر، 46):

يا بُؤسَ لِلقلبِ بعدَ اليومِ ما آبَه ذكرى حبيب ببعض الأرضِ قد رابَه

قالت سُليمى أراكَ إليومَ مُكتئباً والرأسُ بعدي رايتُ الشيبَ قد عابَه

يتذكر امرؤ القيس قول عشيقته ويسترجع الماضي لأن هذا الماضي أثّر في الشاعر حيث شاب رأسه من فرقة الحبيب كما قالت له صاحبته "سلمى" بأنّه إثر بُعده عنها أصيب بالمشيب وأثّر البُعد في نفسيّة الشاعر وجعله مكتئباً. والحاضر السيء يجرّه إلى الأيّام

التي كانت الحياة على ما يُرام. فالشاعر هنا يزيل السّتار عن حالته النفسيّة ويبثّ شكواه، حيث لا يرى نفسه إلا كيئباً قد فقد آماله ويتحسّر عليها. وفي قصيدة أخرى يقول الشاعر *(*نفس المصدر، *123)*:

دِيارٌ لِسلمى عافياتٌ بذي الخالِ ألـحّ عليـها كُـلُّ أسْحـمَ هَـطالِ
وَتَحْسبُ سلمى لاتزالُ تري كعهدنا بوادي الخُزامىأوعلى رأس أوعالِ
وَيا لِيالي سُليمى إذ تُريك منصَّباً وجيداً كجيد الرئم ليسَ بمعطال

عندما يمرّ الشاعر بمكان "ذى خال" يراه عافياً وخالياً من السكان بمرور الزمن ومرّ عليه نزول الهطول وجعله دارساً. تلك الديار التي كانت له عهد مع سلمى ويردف قائلاً إنه مضى ذلك الوقت الذي كان مع سلمى في "وادى خزامى" و"رأس أوعال" في قوله "تحسب سلمى". ويذكر أيّام طربه مع آنسة جميلة كأنها تمثال منقوش ولها جيد جميل كجيد الرئم. وجدير بالذكر أن للماضى نكهة خاصة فيستعيده الشاعر فراراً للألم والتماساً للراحة. لعلنا لا نجانب الصواب حين نذهب إلى القول بأنّ ذكر الأماكن يشير إلى حقيقة العلاقة الموجودة بين الشاعر وبين حبيباته. يصف الشاعر حزنه في بعده عن حبيبته ويقول (نفس المصدر، 101):

متى ترَ داراً من سُعادَ تَقِف بها وتستَجرِ عيناك الدُّموع فتُدمعا

والشاعر يقصد أن ترسل الدموع بكاءاً على "سعاد" عندما يرى الدار خالياً منها. يمكن أن نستنبط مما مضى أن الباعث على النوستالجيا لحبيباته هو غربة الذات التي قصد إليها الشاعر قصداً وتجلّت في حنينه إلى الماضي وخروجه على القبيلة وعلى القيم الدينية والروحية التي كان يؤمن بها المجتمع الجاهلي لأنّه لجأ إلى المجون واللهو رغم منع أبيه وهذا يعني الخروج عن القيم ومكارم الأخلاق عند القبيلة. ولذا يقول امرؤ القيس في قصيدة أخرى (نفس المصدر، 103):

ألا عِم صباحاً أيُّها الرَّبعُ فانطِقِ وَحَدث حديثَ الرَّكبِ إن شِئتَ فاصدقِ

قد يقف الشاعر على الربع فيطلب منه أن يكلّمه عن الفراق وكيف رحل الأحبّة مخلفين الشاعر في غربته. وبعبارة أخرى يشتاق الشاعر إلى الماضي ويطلب من الربع أن يكلمه عن ذاك الاشتياق والحنين.

5. الشكوى من الدهر:

إنّ الدهر قلب لهذا الفتى العاكف على اللهو والمجون، فإذا قتل أبوه وما استطاع أن يسترد ملكه فبدأ يشكو من الدهر، حيث يقول إن الدهر يقسى على الهضاب الصلبة فكيف أتوقّع منها أن يلين لي رغم كوني من سلالة الملوك وأنني سأموت قريباً ذاكراً عمه شرحبيل الذي قتل في يوم الكلاب. يمكن القول بأنه يذكر الأيام الخالية السعيدة أي يقفز إلى الوراء ثم يشكو من واقعه الحالي ومن الدهر لكي نأخذها بعين الاعتبار أن شئياً لا يدوم ولو كنّا ملوكاً في قوله (نفس المصدر، 44):

أبَعدَ الحارث الملك ابن عمرو وَبَعدَ الخير حُجر ذي القباب
أرجّى مِن صُروف الدَّهر ليناً ولم تغفَل عَن الصمِّ الهضاب
وأعلـمُ أنّني عمّـا قـريب سأنشبُ في شبا ظفُر وناب
كما لاقى أبي حجرٌ وَجَدّي وَلا أنسى قَـتيـلاً بالكـلاب

هذا الأبيات «أنّة حزن على العرش المنهار إلى أن صار استسلاماً للأقدار والتفاعاً بشملة الزهاد في مكابرة وعنفوان» (الفاخوري، 1986، 87). وبما أنه فقدَ الماضي الباهر فكان طبيعياً أن يشكو الدهر لأنّه يرى نفسه في أظفار الموت ويرى البعض أنّ «الموت هو غربة أبدية وأبعد صورة الاغتراب إمعاناً في الرهبة والجزع وأنّه تجربة قاسية لشعور الإنسان بالفراق الأبدى» (الخشروم، 1982، 300). وبما أنه ليس للإنسان سلطه فيها فتعتبر هذه الغربة غربة القهر كما مرّ ذكرها. فيشعر امرؤ القيس بدنو أجله ويتحدّث عن مصيره فلا يجد أمامه إلا الموت وهو يترقّب نفس الأجل المحتوم فيشكو من أحداث الدهر ويذكر أن شأن الدهر هو تشتيت المعاشر والفرق وأنّه سبّب في صرمه لأسرته وعشيرته وفرقة شملهم حيث يقول (الديوان، 159):

ألم تَرَيا ورَيبُ الدَّهر رهنٌ بتَفريقِ المعاشر والسّوام

صَبرنا عَن عَشيرتنا فَبانُوا كما صَبرَت خُزيمةُ عن جذام

يذكر الشاعر القبيلتان: الخزيمة وجذام اللتان وقع بينهما الصرم ويقول نحن كذلك بعدنا عن أهلنا وفي منأى عنهم والسبب يعود إلى ريب الدهر. وفي أبياتٍ من قصيدة "تعلّق قلبي" يصف الشاعر أطلال حبيبته ويقول (نفس المصدر، 145):

لمَن طللٌ بينَ الجُدية والجبل محلٌّ قديمُ العهد طالت به الطّيل

عفا غيرَ مُرتادٍ وَمرَّ كسَرحب وَمنفخض طام تنكر واضمحل

والشاعر مرّ بالمنازل الدارسة حيث يجرّه قلبه إلى الوراء ويحضر الماضي فذكر أياماً كانت عامرة بالسكن ويقول إنّ في زمنٍ ما، كانت منازل عهدناه بين الجدية والجبل، ولكن الآن أصبحت المنازل دارساً. ويتابع الشاعر قوله ويشكو من صروف الدهر، لأنه جعل الاماكن المعمورة منازلاً خالياً من السكن (نفس الصفحة):

وزالت صُروفُ الدَّهر عَنه فأصبحت على غير سُكان وَمن سَكنَ ارتَحَل

و الشاعر يقول إنّ أحداث الدهر يجعل الساكنَ راحلاً أخيراً. والغربة في هذه النماذج هي غربة الذات لأن الشاعر يحنّ إلى الماضي ويبثّ شكواه عن تغيّر الدهر عليه.

نتيجة البحث:

يستنبط ممّا مضى عن النوستالجيا أنّ المصدر الحقيقي له تألّم الإنسان عن حاضره السيئ المفعم بما يسخطه ويوجعه من ناحية، ونحو ماضيه المليء بما يرضيه ويفرحه من ناحية أخرى. فالإنسان الذي يميل إلى الحنين إلى الماضي يرى كلَ شر في الحاضر وكل خير في الماضي؛ لذلك يحاول أن ينسى الأولَ المُمّل ويتذكر الثاني المنعش، إذن يُحدِثُ الاشتباك بين الذكرى الحلو والواقع المرّ.

ويُستَنتجُ ممّا تقدّم ذكره أنّ امرء القيس من أكبر الشعراء الجاهليين، اشتاق إلى ماضيه فشعره ملئ بالحنين والذكريات فوجد الماضي ملجأ يلوذ به من الاكتئاب والألم والفراق والغربة. لعلّنا لا نجانب الصواب حينما نذهب إلى القول بأنّ عاطفة الشوق إلى الأحبّة والأهل والتبرّم بالحاضر المؤلم المخزي والتضجّر من المرض المهلك في بلاد الغربة والتنفّر من الغربة والشعور باقتراب الموت الذي يعادل الغربة الأبدية هي العوامل التي أدّت بالشاعر إلى الحنين.

هذا وإنّ للغربة أثر كبير في النوستالجيا وامرؤ القيس من اكثر الشعراء الجاهليين إحساساً بالغربة لأنه فقد ملك أبيه فهام على وجهه. واتّضح أن غربة الذات وغربة القهر والغربة المكانية أو المادية والغربة النفسيّة لها دور هامُ في إثارة الحنين والشوق للماضى. وقد يقع هذه الغربة خارج الوطن وأحياناً داخل الوطن وفي كل منهما ليس للإنسان سلطه فيهما ويسببها القهر كما شاهدنا في أشعاره. وأحيانا يعتور الإنسان غربة الذات كما مرّ ذكره في شكوى امرئ القيس عن الدهر. والشاعر باعتباره إنساناً له تاريخ يخصّه وذكريات لا يمكنه نسيانها، فيسترجع الماضي لكي يعيش فيه ولو لمدّة قصيرة ويسلّي نفسه عن الهموم والأوجاع. فبقدر ما كان الشاعر حريصاً على النفور من الحاضر، كان معنيّاً أيضاً بالعودة إلى الماضي، لذلك قام الحنين إلى الماضي بدورٍ لا يستهان به في مكوناته الشعريّة.

قائمة المصادر والمراجع

- امرؤ القيس، **الديوان**، التصحيح مصطفى عبد الشّافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
- بلوحي، محمد، **آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م.
- جابر، صبيح مزعل، «**غربة الشعراء المشرّدين وحنينهم في العصر الجاهلي**»، مجلة التراث العلمي الأدبي، العدد الأول، بغداد، 2013م.
- الجبوري، يحيى، **الحنين والغربة في الشعر العربي**، جامعة أربد الأهلية، الأردن، 2008م.
- حوّر، محمد إبراهيم، **الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي**، الطبعة الثانية، دار القلم، الكويت، 1989م.
- الخشروم، عبد الرزاق، **الغربة في الشعر الجاهلي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982م.
- راضي جعفر، محمد، **الاغتراب في الشعر العراقي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م.
- الزوزني، حسين بن أحمد، **المعلّقات السبع**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002م.
- الجيلاني، سلطاني، **اتجاهات الشعر في العصر المرابطين بالمغرب والاندلس**، الجامعة الأردنية، الأردن، 1991م.
- ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)**، دار المعارف، القاهرة، 1976م.
- عبد الشافي، مصطفى، مقدمة على **ديوان** امرئ القيس، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
- الفاخوري، حنّا، **الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم**، دار الجيل، بيروت، 1986م.
- فهمى، ماهر حسن، **الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث**، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1970م.
- مومني، بوزيد، «**معلقة امرىء القيس دراسة أسلوبية**»، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2005م.
- مير أحمدي، سيد رضا والآخرون، «**أشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب**»، مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، العدد الحادي عشر، ٢٠١٢م.